الثالوث الأقدس والعائلة

عائلات مريم
2019-2018

أعزّاءنا أخويّات عائلات مريم ومرشديها

ملاحظات كثيرة أتتنا تجاه مواضيع عائلات مريم السنويّة بسبب عدم توافقها مع ثقافتنا وتقاليدنا وعقليّتنا. ولكن ما العمل؟ فتحضير مواضيع للسنة مسألة شاقّة. لذلك تطلب العائلة العالميّة قبل سنة من بلدٍ ما ليحضّر المواضيع للسنة التالية، فيحضّرها انطلاقًا من ثقافته وتقاليده وعقليّته. وعمليّة تكييف النصوص مع ثقافتنا الشرقيّة شاقّة، وتتطلّب مهاراتٍ معيّنة غير متوفّرة دومًا لدينا.

ومع ذلك أردنا المغامرة. ووثقنا بمعونة الروح القدس ورعاية أمّنا العذراء مريم، فجاءت هذه المحاولة البسيطة التي نرجو أن تنال رضاكم، ونحن مستعدّون لسماع ملاحظاتكم في هذا الشأن.

غالبيّة مواضيع هذا الكرّاس مستوحاة من كتاب للأب هنري بولاد اليسوعي **العائلة بين الأصالة والحرّيّة**. وقد قمنا، مع مستشارنا الكنسيّ، الأب سامي حلاّق اليسوعي، بالاقتباس منه، وأجرينا التعديلات الضروريّة، وأضاف مستشارنا إلى المواضيع فقرات وحتّى مواضيع كاملة (كالموضوع الخاص بعيد الميلاد)، للتوفيق بين التثقيف الدينيّ والاجتماعيّ، وروحانيّة عائلات مريم. وسعينا، بحكم خبرتنا الزوجيّة وحياتنا في عائلات مريم، لتتناسب النصوص مع حياتنا. ربّما تجدون صعوبة في بعض الفقرات، ولكنّنا حاولنا قصارى جهدنا للتبسيط. فالمواضيع تريد أن تجعل عقيدة الثالوث مادّةً مُعاشة، خصوصًا في عائلاتنا. لأنّ العقيدة التي ليس لها تطبيق عمليّ في حياة المؤمن اليوميّة جسم ميت.

نأمل لجميع الأخويّات سنة مثمرة.

طوني وجوسلين زيربة
العائلة السوريّة
حلب في 15 – 9 – 2018.

اللقاء الأوّل

سحر الغيريّة وأهمّيّتها

تنبيه. في آخر الكرّاس موضوع عن عيد الميلاد، تستطيع الأخويّة أن تتناوله في زمنه الطقسيّ.

للصلاة

7 وجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ الإنسانَ تُرابًا مِنَ الأَرض ونَفخَ في أَنفِه نَسَمَةَ حَياة، فصارَ الإنسانُ نَفْسًا حَيَّة [...] 18 وقالَ الرَّبُّ الإله: "لا يَجبُ أَن يَكونَ الإنسانُ وَحدَه، فلأَصنَعَنَّ له عَونًا يُناسِبُه". 19 وجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ مِنَ الأَرضِ جَميعَ حَيَواناتِ الحُقول وجَميعَ طُيورِ السَّماء، وأَتى بِها الإنسانَ لِيَرى ماذا يُسَمّيها. فكُلُّ ما سمَّاه الإنسانُ من نَفْسٍ حَيَّةٍ فهوَ آسمُه. 20 فأَطلَقَ الإنسانُ أَسْماءً على جَميعِ البهائِمِ وطُيورِ السَّماءِ وجَميعِ وحُوشِ الحُقول. وأَمَّا الإنسانُ فلَم يَجِدْ لِنَفسِه عَونًا يُناسِبُه. 21 فأَوقَعَ الرَّبُّ الإلهُ سُباتًا عَميقًا على الإنسانِ فنام. فأَخَذَ إِحْدى أَضْلاعِه وسَدَّ مَكانَها بلَحْم.22 وبَنى الرَّبُّ الإلهُ الضِّلْعَ الَّتي أَخَذَها مِنَ الإنسانِ اَمرَأَةً، فأَتى بِها الإنسان. 23 فقالَ الإنسان: "هذهِ المَرَّةَ هي عَظْمٌ مِن عِظامي ولَحْمٌ مِن لَحْمي. هذه تُسَمَّى اَمرَأَةً لأَنَّها مِنِ آمرِئٍ أُخِذَت". 24 ولذلِكَ يَترُكُ الرَّجُلُ أَباه وأُمَّه ويَلزَمُ امرَأَتَه فيَصيرانِ جَسَدًا واحِدًا. (تك 2: 7، 18-24).

الموضوع

يقول البابا يوحنّا بولس الثاني في خطابه للعائلات: «يمكننا أن نلاحظ النموذج الأصليّ للعائلة، الذي ينبغي التفكير به، في الله نفسه، في سرّ حياته الثالوثيّة» (**رسالة للعائلات**، 1994).

بتعبيرٍ آخر، يستلهم أفراد العائلة المسيحيّة أسلوب حياتهم، وتعاملهم مع بعضهم بعضًا، وطريقة حضورهم لبعضهم بعضًا، من أسلوب حياة الأقانيم الثلاثة، وتعاملهم وحضورهم لبعضهم بعضًا. قد يبدو الأمر غريبًا. لم نتعوّد أن نقارن أنفسنا بالثالوث، وربّما لم يخطر ببالنا أنّ لهذه العقيدة تطبيقات في حياتنا اليوميّة. حسنًا، فلنبدأ هذه المغامرة.

الثالوث في الكتاب المقدّس

في أوّل آيتين من سفر التكوين نجد إشارة إلى الثالوث. فهناك الآب الخالق، والابن الكلمة (اللوغوس)، الذي به خُلِق كلّ شيء، ونجد أيضًا الروح الذي كان يرفّ على وجه المياه. ونحن نؤمن بأنّ هذا الثالوث غير المنقسم هو أصل العالم. واللافت للنظر أنّ الله حين خلق الإنسان تكلّم بصيغة الجمع: "لنصنع الإنسان على **صورتنا ومثالنا**" (تك1: 26). **وسيتمّ التعبير عن الصورة والمثال** في الثنائيّة: "**رجلًا وامرأة** خلقهما" (تك1: 27). فالكائن البشريّ على صورة الله في الزوجين، زوجان مدعوّان إلى الخصوبة: "انموا وأكثروا واملأوا الأرض" (تك1: 28). فالثنائيّة والخصوبة تتاليان وتولّدان الواحدة الأخرى.

وهناك صورة أخرى تعبّر عن الفكرة نفسها. ففي الفردوس الأرضيّ، حين رأى الله آدم بائسًا في عزلته، قال في نفسه: "لا يحسن أن يكون الإنسان وحده" (تك2: 18)، فأخذ المرأة من ضلع آدم، وصارا أصل البشريّة، وهذه علامة أخرى على سرّ الله الجماعيّ. فلنتوقّف قليلاً عند هذا. في الصفحة الأولى، أو قصّة الخلق الأولى، يرى الله كلّ شيءٍ حسنًا. وهنا، في تفاصيل خلق الإنسان، حين خلق آدم وحده، رأى أنّ هذا ليس حسنًا: لا يحسن أن يكون الإنسان وحده".

هنا نرى مبدأ تسمّيه الفلسفة: "الغيريّة". أي ضرورة وجود آخرٍ مختلف. لقد تمّ الخلق جماعيًّا لا فرديًّا. **حين تشكّل العائلة جماعة، لا مجموعة أفراد، تستطيع أن تبدع وتخلق**. القرارات المنفردة ليست خلاّقة، وعدم التشاور وأخذ رأي الآخر المختلف في عين الاعتبار لا يشكّل جماعة.

وفي الكتب الحكميّة، تحدّثنا هذه الكتب عن "حكمةٍ" سرّيّة ماثلة لدى الله منذ البدء، تعمل في حضوره وتنصحه في خليقته. هذه الحكمة هي إشارة سواء إلى اللوغوس أو إلى الروح. هذا يكشف لنا إلهًا جماعيًّا يتحاور مع ذاته منذ الأزل! وفي هذا أيضًا نلاحظ الغيريّة في قلب الوحدة الإلهيّة.

الغيريّة مبدأ مسيحيّ بامتياز. حين سعى الناس ليكون لهم مجد ولغة ووحدة تلغي الاختلاف في بابل، بلبل الله الألسنة. وفي العنصرة، ظهرت معجزة الروح القدس وهي **الوحدة في التنوّع**. فالمسيحي لا يقبل الاختلاف كواقعٍ مفروض، بل يختاره ويريده. لذلك اختار المسيح رسله مختلفين في الطباع والمستويات الثقافيّة، وصار هو مصدر وحدتهم وأساسها. وحين اختار كلّ منّا قرينه، اختاره مختلفًا لا مثليًّا: رجل وامرأة. أمام هذا الاختلاف، تلجأ الشعوب إلى الهيمنة لضمان الوحدة في العائلة: طرف يهيمن على الآخر. في حين أنّ الزواج المسيحيّ مبنيّ على الشراكة، تمامًا مثل الشراكة بين أقانيم الثالوث، وضمان الوحدة في هذا التنوّع هو الروح القدس الذي يجعل اختلاف المواهب تكاملاً لا تنافسًا.

خلاصة القول: العائلة المسيحيّة، على مثال الثالوث، ليست أفرادًا متماثلين في الأفكار والمشاعر والآراء حتّى إنّك تخال الواحد نسخةً عن الآخر. العائلة المسيحيّة ثلاثة كيانات (زوج، زوجة، أولاد) مختلفة. وهذا الاختلاف ضروريّ، ويجب الحفاظ عليه، ورعايته وتنميته، لا سحقه وإلغائه. لأنّه مصدر غنى وإبداع. أمّا الوحدة في هذا الاختلاف، فهي من عمل الروح القدس الذي يوحّد الجميع، كلّ بحسب موهبته، ليكونوا واحدًا كما أنّ الابن والآب واحد. فلنصلّي دومًا للروح، لأنّه ضمانة وحدتنا في العائلة.

أسئلة لواجب المجالسة

فليقل كلّ واحدٍ للآخر ما الذي يراه فيه مختلفًا عنه، وهل هذا الاختلاف مصدر إزعاج أم فرح.

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

ما الذي لفت انتباهك في النصّ المطروح؟

أولادكما ليسوا مختلفين عنكما وحسب، بل مختلفين عن بعضهم بعضًا. كيف تتعاملان مع هذا الاختلاف؟

اللقاء الثاني

إله واحد لا وحيد

للصلاة

وكانَ قد أَحَبَّ خاصَّتَه الَّذينَ في العالَم، فَبَلَغَ بِه الحُبُّ لَهم إِلى أَقْصى حُدودِه. 3وكانَ يسوعُ يَعلَمُ أَنَّ الآبَ جَعَلَ في يَدَيهِ كُلَّ شَيء، وأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الله، وإِلى اللهِ يَمْضي، 4 فقامَ عنِ العَشاءِ فخَلَعَ ثِيابَه، وأَخَذَ مِنديلاً فَائتَزَرَ بِه، 5 ثُمَّ صَبَّ ماءً في مَطهَرَةٍ وأَخَذَ يَغسِلُ أَقدامَ التَّلاميذ، ويَمسَحُها بِالمِنديلِ الَّذي ائتَزَرَ بِه [...] 12فلَمَّا غَسَلَ أَقدامَهم لَبِسَ ثِيابَه وعادَ إِلى المائدة فقالَ لَهم: "أَتَفهَمُونَ ما صَنَعتُ إِليكم؟ 13أَنتُم تَدعونَني "المُعَلِّمَ والرَّب" وأَصَبتُم في ما تَقولون، فهكذا أَنا. 14فإِذا كُنتُ أَنا الرَّبَّ والمُعَلِّمَ قد غَسَلتُ أَقدامَكم، فيَجِبُ عَلَيكُم أَنتُم أَيضاً أَن يَغسِلَ بَعضُكم أَقدامَ بَعْض. 15فقَد جَعَلتُ لَكُم مِن نَفْسي قُدوَةً لِتَصنَعوا أَنتُم أَيضاً ما صَنَعتُ إِلَيكم. 16الحَقَّ الحَقَّ أَقولُ لَكم: ما كانَ الخادِمُ أَعظَمَ مِن سَيِّدِهِ ولا كانَ الرَّسولُ أَعظَمَ مِن مُرسِلِه. 17أَمَّا وقد عَلِمتُم هذا فطوبى لَكُم إِذا عَمِلتُم بِه. (يو 13: 1، 3-5، 12-17).

الموضوع

هناك بعض المعترضين الّذين يرون أنّ فكرة الإله-الثالوث فكرة ثقيلة ومرهقة. فإله الإسلام يبدو أشدّ وضوحًا وبساطة ومنطقيّة. ففي الإسلام الله "واحد" وكفى. لمَ نعقّد الأمور إذا كنّا نستطيع تبسيطها؟ هل من منطق في أن يكون الله ثالوثًا؟ وإذا وجِد المنطق، فما هو؟ وهل يمكننا أن نجد، نحن البسطاء ومحدودي الفكر، منطقًا لهذا السر الذي يشكّل إحدى أساسات إيماننا المسيحيّ؟

السرّ يكمن في المحبّة

نحن نقول إنّ الله محبّة. فهل نقول عن شخصٍ إنّه محِب إذا كان يحبّ ذاته فقط؟ ألا يفترض الحبّ وجود "الغيريّة": ما من حبٍّ بدون آخر في الجهة المقابلة. وبالتالي يتوجّب وجود قطب آخر في الله يجعل الحبّ ممكنًا. وهنا التساؤل: كيف نوفّق بين وحدانيّة الله، وضرورة الغيريّة في الحب؟

يقول بعضهم إنّ الله يستطيع أن يعبّر عن حبّه من خلال حبّه لذاته. لكنّ إلهًا يحبّ ذاته ولا يرى إلاّ ذاته طوال الدهر هو وحش ونرجسيّ! كيف نخرج من هذا المأزق؟ هناك إجابة وحيدة: **يجب ألاّ نجعل التعدديّة خارج وحدانيّة الله بل داخلها، فالله واحد ولكنه ليس بمفرده!** ومن هنا جاء تعبير الإيمان: "نؤمن بإلهٍ واحد"، ولا نقول: "نؤمن بإلهٍ وحيد". ما معنى هذا؟

إذا نظرنا من الخارج، فالله واحد. ولكن إذا نظرنا من الداخل فالله "جماعة"، وغيريّته ليست خارج المحيط الإلهيّ، بل داخله. ولذلك إذا نظرنا إلى الغيريّة من الخارج سنسقط في الإشراك به حتمًا. بالإضافة إلى ذلك، الإله الـ "وحيد" يكون أتعس ما هو موجود. إنّه لا يتمتّع بفرحة الحب. فكما أنّه لا يحسن أن يكون الإنسان وحيدًا (تك2: 28)، كذلك لا يحسن أن يكون الله وحيدًا. فإذا كانت

وحدته ستحكم عليه بأن يظلّ وحيدًا فسماؤه ستكون جحيمًا حتمًا. لذا، وبدافع رغبةٍ بالحبّ لا تقاوم، ينطلق الله انطلاقة حبٍّ ويصير أبًا إذ يلد ابنًا.

الحبّ يتخلّى

تتميّز العلاقة بين الآب والابن **بالتخلّي**، حيث يفرّغ كلّ من الآب والابن ذاته للآخر بنشوة أزليّة، وتصبح الألوهة خيرًا مشتركًا وكنزًا يجب تقاسمه، فيرفض كلّ منهما أن يمتلك وحده دون الآخر، لذلك يمكننا الكلام حينها على الامتلاك في عدم الامتلاك! **الألوهة واحدة ولا تنقسم، مشتركة لدى الواحد والآخر، وفي الآن نفسه لا يتملّكها أيّ منهما باستئثار بل بمشاركة الآخر بها**. لذلك يقول يسوع: "أبي أعطاني **كلّ** شيء... كل ما هو للآب فهو لي... لا أفعل شيئًا من عندي، بل من الآب الذي أرسلني". هذه العبارات متناقضة بمفهوم التملّك والاستئثار، ومفهومة بمفهوم التخلّي والمشاركة.

شكل الثالوث

درجت العادة على تصوير الثالوث بشكل مثلّث متساوي الأضلاع، بعضهم يعتبر رأسه في الأعلى، وبعضهم يجعل الرأس في الأسفل. هذا التصوير خطأ! فآباء الكنيسة صوّروه في دائرة، لأنّ الثالوث منبع الحياة، والحياة حركة، تدفّق دائم في سبيل فيضٍ يأتي ليملأ الفراغ. **"الحياة"** هي استقبال وعطاء في آنٍ واحد. فالعمليّة دورانيّة. وفي الثالوث الأقدس يتمّ الكلام على الـ *Circumincession*، وهي كلمة تعني "التبادل والتدوير"، وآباء الكنيسة تحدّثوا عن البيريكوريز *périchorèse*، أي الحركة الدورانيّة، أو الرقصة الدائريّة، بين الأقانيم. فلأن الله **"حياة"** فهو **"محبّة"**. ولأنّ الله **"محبّة"** فهو **"حياة"**. كلّ أقنومٍ يفسح المجال للآخر ليعمل كما يشاء، فيحلّ الواحد بدل الآخر بدون توتّر، ولا استياء، ولا غيظ، بل بفرح من قبل كلّ طرف.

وأخيرًا، لعلّ أقرب صورة للثالوث هي ما يقترحه الأب فاضل سيداروس (**سرّ الثالوث الأحد**). الذرّة. إنّها مكوّنة من نواة، وإلكترون، وطاقة هائلة تجعل الإلكترون لا ينفصل عن النواة. الآب هو النواة، والابن هو الإلكترون، والروح هو الطاقة التي تربط الواحد بالآخر. ثنائيّة، آب وابن يعيشان باحتضانٍ أزليٍّ غير منفصل، فلا يذوب أحدهما في الآخر. بل يظلّان اثنين. وحدة في التمايز. والذي يجعل هذه الوحدة ممكنة هو ذلك الثالث الغامض، تلك التمتمة الخفيفة، هذا الهمس السرّيّ، تلك الطاقة الموجودة في قلب الاثنين، الّتي تدعوهما كي يعطي كلّ منهما ذاته للآخر. فالروح هو ذاك الذي يجعل الاثنين الآخرَين حاضرَين ويتلاشى فيهما، وهو ما نسمّيه الحب، وثمرته الأولاد. فالأولاد بمثابة الروح، يجمعون ويوحّدون الجهود ويوجّهوها.

أسئلة لواجب المجالسة

ما هي مصادر الطاقة التي تجعلكما واحدًا، وكيف تنهلان منها؟

إلى أيّ مدى الأولاد عنصر وحدةٍ بينكما؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

في النصّ المطروح، ما الذي كان اكتشافًا بالنسبة إليك، وهل لديك ملاحظات؟

كيف نعيش التخلّي في حياتنا البيتيّة وفي القرارات؟

اللقاء الثالث

من العائلة الإلهيّة إلى العائلة البشريّة

للصلاة

12 وكما أَنَّ الجَسَدَ واحِدٌ ولَه أَعضاءٌ كَثيرَة وأَنَّ أَعضاءَ الجَسَدِ كُلَّها على كَثرَتِها لَيسَت إِلاَّ جَسَدًا واحِدًا، فكذلكَ المسيح. 13فإِنَّنا اعتَمَدْنا جَميعًا في رُوحٍ واحِد لِنَكونَ جَسَدًا واحِدًا، أَيَهودًا كُنَّا أَم يونانِيِّين، عَبيدًا أَم أَحرارًا، وشَرِبْنا مِن رُوحٍ واحِد. 14فَلَيسَ الجَسَدُ عُضْوًا واحِدًا، بل أَعضاءٌ كَثيرة.15 فلَو قالَتِ الرِّجْلُ: "لَستُ يَدًا فما أَنا مِنَ الجَسَد"، أَفتُراها لا تَكونُ لِذلك مِنَ الجَسَد؟ 16ولَوقالَتِ الأُذُن: "لَستُ عَينًا فما أَنا مِنَ الجَسَد"، أَفتُراها لا تَكونُ لِذلك مِنَ الجَسَد؟ 17 فلَو كانَ الجَسَدُ كُلُّه عَينًا فأَينَ السَّمعْ؟ ولَو كانَ كُلُّه أُذُنًا فأَينَ الشَّمّ؟ 18 ولكِنَّ اللهَ جَعَلَ في الجَسَدِ كُلاًّ مِنَ الأَعضاءِ كما شاء. 19 فلَو كانَت كُلُّها عُضوًا واحِدًا فأَينَ الجَسَد؟ 20 ولكِنَّ الأَعضاءَ كَثيرَةٌ والجَسَدَ واحِد. 21 فلا تَستَطيعُ العَينُ أَن تَقولَ لِليَد: "لا حاجَةَ بي إِلَيكِ" ولا الرَّأسُ لِلرِّجْلَين: "لا حاجَةَ بي إِلَيكُما". 22 لا بل إِنَّ الأَعضاءَ الَّتي تُحسَبُ أَضعَفَ الأَعضاءِ في الجَسَد هي ما كانَ أَشدَّها ضَرورة، 23 والَّتي نَحسَبُها أَخَسَّها في الجَسَد هي ما نَخُصُّه بِمَزيدٍ مِنَ التَّكريم. [...] 26 فإِذا تَأَلَّمَ عُضوٌ تَأَلَّمَت مَعَه سائِرُ الأَعضاء، وإِذا أُكرِمَ عُضوٌ سُرَّت معَه سائِرُ الأَعضاء. (1 قور 12: 12-23، 26).

الموضوع

بعد أن رأينا في الموضوعَين السابقَين العائلة الإلهيّة، سوف نتحدّث الآن عن العائلة البشريّة. من المهم أن نلاحظ أنّ كلًا من العائلتين تلقي الضوء على الأخرى.

نقاط تشابه

إنّ أوّل شيء مشترك يمكننا ملاحظته هو أنّه لا يوجد في كلتا العائلتين مَن يمتلك شيئًا لذاته.

كلّ شيء هو ملك للكلّ. كل ما هو "لي" وما هو "لك" يصبح ما هو "لنا". وهي الفكرة نفسها التي تأتينا من العائلة الإلهيّة لكي تعيشها العائلة البشريّة، وهي سرّ الشراكة في الله.

ونقطة التشابه الأخرى هي التالية: كما أنّ الابن (في الثالوث) يتلقّى ذاته كلّها من الآب، وأنّه لا يكون شيئًا بدونه، كذلك أيضًا الزوجَين. فالرجل يتلقّى ذاته من زوجته، والمرأة تتلقّى ذاتها من زوجها. وكلّ منهما يظلّ مرتبطًا بالآخر كما لو كان شرطًا لوجود الآخر. إنّ هذا التعلّق المتبادل مستمرّ ودائم سواء لدى البشر أو لدى الألوهة. فعطاء الآب للابن ليس عطاءً لحظيًّا جرى في الأزمنة الغابرة، بل حدثًا حاضرًا ويحدث حاليًّا. إنّه "الآن" الذي فيه يولد: "وأنا **اليوم** ألدك" (مز2: 7).

ويُقال الأمر نفسه في الزواج. إنّه ليس ماضيًا بل حاضرًا. فلا يجب أن نقول "لقد تزوجتُ منذ 20 أو 30 عامًا". لا، بل اليوم أنتما تتزوّجان. وكلّ يوم أنتما تتزوّجان؛ لا شريكًا آخر بل الشريك نفسه الذي اختاره كلّ منكما وعاهده على الوفاء. عليكما اليوم أن تختارا بعضكما من جديد بالحماس

والزخم نفسيهما اللذَين عشتماهما معًا في شهر العسل. فإن لم تجدّدا يوميًّا كلمة "نعم" التي قلتماها في حفل الزواج، فزواجكما مهدّد بالموت! وإن لم تجددا في كلّ لحظة تقدمة الذات، فحبّكما يواجه خطر الضمور.

التكامل بين الرجل والمرأة: متساويان، لكنّهما مختلفان

هناك جانب آخر مشترك بين العائلتين البشريّة والإلهيّة، وهو الغيريّة والاختلاف. فالأب هو الأب وليس الأم؛ وهو الرجل وليس المرأة. والأمّ أيضًا هي الأم وليست الأب؛ فهي المرأة وليست الرجل. إنّهما مختلفان ولكنّهما متساويان. والمساواة لا يجب أن تلغي الاختلاف، ولا يُفترض أن تقود إلى أيّ نوع من التعالي من جانب أيّ شريك على الآخر. أمّا إذا أردنا أن نخلط الأمور ونلغي الاختلافات، فهذا سيؤدّي إلى كوارث. إنّ إيديولوجيّة التساوي تتجاهل اختلاف القطبَين أو الشريكَين جنسيًّا، وبيولوجيًّا ونفسيًّا. على المرأة أن تكون امرأةً بكلّ ما في الكلمة من معنى: زوجة، وأمّ بكلّ إمكانيّاتها وحنانها الأموميّ. وكذلك على الرجل أن يكون رجلًا بكلّ ما في الكلمة من معنى: أن يكون أبًا وزوجًا مع كلّ ما يتضمّنه ذلك من رجولة وسلطة القيادة.

نلاحظ في حياة العائلة أنّ دور الوالدَين مختلف. فيُفترَض أن يُمثّل الرجل قطب السلطة، والمرأة قطب التأثير. هذا لا يعني أنّه لا سلطة للمرأة وأنّه لا تأثير للرجل. فالمسألة هي إلحاح على دور كلّ منهما من أجل التوصّل إلى توازن. بكلمات أخرى، يمكننا أن نقول إنّ الرجل هو الرأس والمرأة هي القلب. فإذا قُطِعَت الرأس لن يوجد إنسان، وإذا انتُزِعَ القلب لن يوجد إنسان. وبالتالي فإنّ إلغاء أيّ منهما يعني الموت! فالقضيّة لا تكمن في الاختيار بين الرأس والقلب، لأنّ كليهما ضروريّ، هذا هو التكامل الحقيقيّ.

أسئلة لواجب المجالسة

ما هي نقاط التشابه بينكما وبين العلاقة آب – ابن في الثالوث؟

يستطيع الزوجان أن يجدّدا العهد لبعضهما بعضًا في واجب المجالسة.

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

الرجل هو الرأس والمرأة هي القلب. ما هي الظروف التي تخلق خللاً في هذه القاعدة؟

ما هي صعوباتي في قبول اختلاف الآخرين خارج العائلة؟

اللقاء الرابع

حبّ فريد وغير مشروط

للصلاة

اللهُ مَحبَّة
فمَن أَقامَ في المَحَبَّةِ أَقامَ في الله وأَقامَ اللهُ فيه.
17 واكتِمالُ المَحبَّةِ بِالنَّظَرِ إِلَينا أَن تَكونَ لَنا الطُّمَأنينَةُ لِيَومِ الدَّينونة فكما يَكونُ هو كذلك نَكونُ في هذا العالَم
18 لا خَوفَ في المَحبَّة بلِ المَحبَّةُ الكامِلةُ تَنْفي عَنها الخَوف لأَنَّ الخَوفَ يَعْني العِقاب ومَن يَخَفْ لم يَكُنْ كامِلاً في المَحَبَّة.
19 أَمَّا نَحنُ فإِنَّنا نُحِبّ لأَنَّه أَحَبَّنا قَبلَ أَن نُحِبَّه. 20 إِذا قالَ أَحَد: "إِنِّي أُحِبُّ الله" وهو يُبغِضُ أَخاه كانَ كاذِبًا لأَنَّ الَّذي لا يُحِبُّ أَخاه وهو يَراه لا يَستَطيعُ أَن يُحِبَّ اللهَ وهو لا يَراه (1 يو 4: 16-20).

الموضوع

يخبرنا قانون الإيمان عن "الابن الوحيد". وكلمة "وحيد" أساسيّة في الحب. وهنا ينير سرّ الله سرّ الإنسان. فالعائلة هي المكان الذي يكون فيه كلّ شخص فريدًا ولا بديل له. وهذا يعني أنّني حين أغيب هناك سرير فارغ، ومكان خالٍ على مائدة الطعام؛ وفراغ في قلب مَن تركتُهم. وهذا يعني أيضًا أنّ الوالد والوالدة، أو الزوج والزوجة ينتظران عودتي بفارغ الصبر. ومهما كانت المسافات والغيابات، فأنا أبقى دائمًا حاضرًا ومهمًّا ولا غنى عنّي.

إنّ ما يضفي معنًى إلى حياتنا هو أن يعرف الشخص أنّه فريد. والحبّ يجعلنا نعرف ذلك. فطفلكما مثلاً، ليس اسمًا على قائمة، أو وجهًا بين آلاف الوجوه. إنّه هو، "فلان"، المحاط بهالةٍ من ماضيه. هو الذي ترياه يكبر وينضج طوال سنوات؛ هو، الشديد الأهمّيّة في نظركما. حين تذهبان، أو كنتما تذهبان لإحضاره من المدرسة، وتريا وجهه وسط حشدٍ من التلاميذ، تتحرّك أحشاؤكما. وحين تتقاطع نظراتكما بنظراته، يشرق وجهكما، فيأتيكما مسرعًا ويلقي بنفسه في أحضانكما. ولأنّ ولدكما نال هذا الحبّ يستطيع هو أيضًا أن يُحب.

الإنسان ليس نتيجة لقاءٍ عرضيّ بين خليّتين. إنّه كائن بشريّ يحتاج إلى شمس الحبّ كي يزهر. فالطفل لا يتقبّل أهله بيولوجيًّا، بل نفسيًّا وإنسانيًّا وشخصيًّا أيضًا. لذلك فإنّ تنشئة طفل هي مسألة طويلة الأمد.

لا يمكن أن يتوافق الإنسان مع ذاته، ولا أن يكون صادقًا مع ذاته، إن لم ينل حبًّا بلا شروط. نحن لا نعي غالبًا أبعاد هذه الكلمة: **الحب**. إنّها تعني أنّنا لسنا محبوبين، في العائلة - كما في الله- لأجل هذا الأمر أو ذاك. نحن محبوبون ببساطة "لأنّنا نحن". ولا حاجة لنا إلى اللفّ والدوران كي يتمّ قبولنا. فاليقين بأنّني محبوب هو الشرط الأساسيّ لكلّ انشراح.

العيش بالنسبة إلى الكائن البشريّ لا يعني الوجود ماديًّا، بل الوجود إنسانيًّا. "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" (متى4: 4). قد تقدّمان لطفلكما حُجرةً مريحةً وثلّاجة مليئة بالطعام. إن لم ينل الحبّ، نقصه ما هو أساسيّ. هناك أغنيّة إنجليزيّة من الستينيّات تعبّر عن هذا المعنى بشكلٍ رائع: "You are nobody until somebody loves you"، أي "أنت لست أحدًا إلى أن يحبّك أحدٌ".

العائلة سرّ الحبّ الإلهيّ

إنّ الله يعبّر عن حبّه من خلال العائلة. وهذا ما قالته الأم تريزا التي من كالكوتا: "God has sent the family to be his love"، أي "لقد أرسل الله العائلة لتكون حبّه". فنحن نكتشف الحبّ الإلهيّ من خلال الحبّ البشريّ، أي من خلال كائناتٍ من لحمٍ ودم، يكونوا سرّ الحبّ الإلهيّ في حياتنا. العائلة مقدّسة لأنّها أسمى تعابير حبّ الله لكلّ شخص.

"...علينا أن نؤكّد أنّ تيّار الحبّ الذي يسري داخل الأجواء الإلهيّة هو نفسه الذي يسري في الزوجَين في حميميّة العلاقة بينهما. فالديناميكيّة الثالوثيّة تمرّ من خلال جسديهما، وقلبيهما، وأذرعهما، وشفاههما لتصل إلى منبعها. حين يحبّ شخصان بعضهما بعضًا، فإنّ الله هو الذي يمرّ من خلالهما... حين يحبّ شخصان بعضهما بعضًا حقًّا، يمرّ الله منهما... الأمر يبدو مدهشًا، ولكنّ الأمور تتمّ هكذا. ففي حوار الحبّ يتبادل الله مع ذاته. والكلمات والحركات الصادرة من الزوجَين هي كلمات الله وحركاته.

حين يقدّم الآخر ذاته لي، فإنّه يقدّم الله لي، يوصلني به. فكما أنّ الكاهن في القدّاس، حين يقدّم لي القربان يقول: "جسد المسيح"، كذلك حين يقدّم شريكي ذاته لي، يقدّمني لله. فبقدر ما يكون حبّ الزوجَين صادقًا، تكون هناك شراكة حقيقيّة مع الله. حين يحبّ شخصان بعضهما بعضًا حقًّا، يمرّ الله منهما. وكما أنّ الروح القدس، روح الحبّ، يحقّق وحدة الثالوث، فإنّه يحقّق وحدة الزوجَين أيضًا. إنّه يعبر من خلالهما ليجعلهما جسدًا واحدًا وقلبًا واحدًا وروحًا واحدة، إنّه رابطهما وعلاقتهما..." (الأب هنري بولاد، **الحبّ المقدَّس**).

أسئلة لواجب المجالسة

بأيّ طريقة يفهمني شريك(ة) حياتي بأنّي فريد(ة) في عينيه(ا)؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

ما هي مكانة الله في حبّكما الزوجي؟

كيف تمنح كلّ ولد من أولادك الشعور بأنّه فريد ومقبول كما هو؟

اللقاء الخامس

الحميميّة والخصوصيّة

للصلاة

5 وإذا صَلَّيْتُم،فلا تَكونوا كالمُرائين،فإِنَّهُم يُحِبُّونَ الصَّلاةَ قائمينَ في المَجامِعِ ومُلْتَقى الشَّوارِع، لِيَراهُمُ النَّاس. الحَقَّ أَقولُ لكُم إِنَّهم أَخَذوا أَجْرَهم. 6أَمَّا أَنْتَ، فإِذا صَلَّيْتَ فادخُلْ حُجْرَتَكَ وأَغْلِقْ عَلَيكَ بابَها وصَلِّ إِلى أَبيكَ الَّذي في الخُفْيَة، وأَبوكَ الَّذي يَرى في الخُفْيَةِ يُجازيك. 7وإِذا صَلَّيْتُم فلا تُكَرِّروا الكلامَ عَبَثاً مِثْلَ الوَثَنِيِّين، فهُم يَظُنُّونَ أَنَّهُم إِذا أَكثَروا الكلامَ يُستَجابُ لهُم. 8فلا تتَشَبَّهوا بِهِم، لأَنَّ أَباكُم يَعلَمُ ما تَحتاجونَ إِلَيه قبلَ أَن تَسأَلوه (متى 6: 5-8).

الموضوع

لقد تكلّمنا عن التخلّي في الثالوث، واليوم سنرى ما هو مخالف. فالمحبّة المتبادلة، والانفتاح على الآخر، والتخلّي، لا تلغي التعلّق، وهو ما أظهره يسوع في حياته، خصوصًا قبل آلامه. فالإنجيليّ يوحنّا، التلميذ الحبيب، يقول إنّ يسوع بلغ به الحبّ حينها لخاصّته أقصى حدوده. وعند سمعان الأبرص، أو عند مرتا ومريم، عبّر عن حبّه لحسن الضيافة (لو 7: 36-49) والعطور (يو 12: 1-11). لقد عاش الحميميّة التامّة مع أبيه، وكان يختلي به دومًا في الصلاة، ومع ذلك حافظ على خصوصيّته، وعبّر عن مشيئته المختلفة: "لا تكن مشيئتي بل مشيئتك". فالحبّ ليس انصهارًا، بل يتطلّب مسافة.

حميميّة وخصوصيّة

من المهم أن نحافظ على حميميّة للعائلة، وفي الآن نفسه من المهم أن نحافظ على الحياة الخاصّة لكلّ فرد من أفراد الأسرة. وهذا يتطلّب من الجميع احترامًا وانتباهًا وحرصًا تجاه بعضهم بعضًا. فبدون ذلك سيواجه الحبّ خطر الانحلال والفناء. فهناك من يعتقد بأنّه لا يجب أن يكون في الحياة العائليّة "خصوصيّة". وهذا خطأ! لأنّه بقدر ما نقترب من بعضنا بعضًا في إطار المنزل يصبح من الضروريّ الحفاظ على حرمة كلّ شخص. إنّ الشاعر الفيلسوف خليل جبران، في كتابه الشهير **"النبي"**، يؤكّد على أهمّيّة الحفاظ على مسافة بين الزوجَين ليتمكّن كلّ منهما من أن يكون ذاته، فيقول:

"... فليتخلل التنامكما فسحات؛ حتّى تتيحا لرياح السماوات أن ترقص بينكما. ليحبّ أحدكما الآخر، ولكن لا تجعلا من الحبّ قيدًا، بل اجعلاه بحرًا متدفّقًا بين شواطئ أرواحكما [...]. غنيا وارقصا وامرحا معًا، ولكن ليخلُ كلٌّ إلى شأنه؛ فإنّ أوتار القيثارة مشدودة على افتراق، وإن خفقت جميعًا بلحن واحد. وليهب كلّ منكما قلبه لرفيقه، لكن دون أن يستأثر به، فلِيَدِ الحياة وحدها أن تسع قلبيكما. ولتنهضا متكافلَين، لكن دون أن تتلاصقا؛ فإنّ أعمدة المعبد على انفصال تقوم، والسنديان والسرو لا ينمو بعضهما في ظلّ بعض.

إنّ احترام الآخر غالبًا ما يتجسّد في أمور صغيرة وبسيطة... مثلًا أن نقول: "صباح الخير"، "مساء الخير"، "إذا سمحت"، "شكرًا"، "آسف"... وأيضًا أن نشير إلى ما هو إيجابيّ عند الآخر، ونثني عليه، ونُقَدِّر ما لديه من خصال، ونحترم حياته الشخصيّة وشؤونه وممتلكاته، ونعتني بالأشياء التي تخصّه أو تخصّ الجميع... فاحترام الأشياء من احترام أصحابها. ومن الطبيعي أن يكون لكلّ فرد في العائلة درجه الشخصيّ ولا أحد لديه المفتاح غيره، أو أن تكون لديه خزانة هي خزانته، أو مكتب هو مكتبه، وشؤون خاصّة به ولا يحقّ لأحدٍ أن يحشر أنفه فيها.

ولكي يستطيع الفرد أن يبني شخصيّة مستقلّة عليه أن ينمّي قدرة على الانعزال، الذي يمثّل الطريق المميّز للولوج إلى عمق الذات. من يستطيع أن يبني ذاته من الداخل يستطيع ان يعيش مع الآخرين دون أن يذوب فيهم. فالقدرة على أن ننعزل مع ذواتنا هي شرطٌ أساسيٌّ للحياة المشتركة. لذلك تلحّ عائلات مريم على الصلاة. إنّها ليست فريضة، بل فترة عزلة مع الذات بحضور الله.

إنّ فكرة العزلة مرتبطة بفكرة "العمق". فالعزلة تسمح لنا بالدخول إلى أغوار ذواتنا، واكتشاف أنفسنا وشخصيّتنا الحقيقيّة. وهذا الاكتشاف يساعدنا في الوقت نفسه على اكتشاف الله في قدس أقداس حميميّتنا. فالعزلة والصلاة أمر واحد، والعزلة واختبار الله أمر واحد، والعزلة واكتشاف الذات أمر واحد.

من الضروري أيضًا أن نسهر على حميميّة العائلة وندافع عنها. فمبقدار ما تنفتح العائلة على الأصدقاء والمعارف، عليها أن تغلق أبوابها لتحافظ على أوقاتٍ خاصّة بها. فالمنزل المفتوح على مصراعيه يكون عُرضةً للانهيار والسقوط. وأقول في الخطّ نفسه: "يجب أن ننشر غسيلنا الوسخ داخل العائلة، لا خارجها". فهناك أشياء يمكننا قولها بين الجدران الأربعة، ولا يجب بأيّ حال من الأحوال أن تُنشر في الخارج. فالسرّيّة هي من الأمور الضروريّة للمحافظة على لُحمة العائلة. لا يحقّ لكم أن تبوحوا بأمور حياتكم العائليّة في الصالونات أو النوادي أو عند الجيران أو في مكان العمل.

أسئلة لواجب المجالسة

إلى أيّ مدى أقبل أو أرفض أن يكون لشريك حياتي خصوصيّته؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

ما الذي أختبره، أو لا أختبره، في صلاتي انطلاقًا ممّا ورد في النصّ؟

قيّم احترام، أو عدم احترام خصوصيّة أولادك. هل من فائدة أن يكون لهم خصوصيّة؟ ما الذي تخشاه؟

اللقاء السادس

الحضور للآخر

للصلاة

7 فقالَ الرَّبّ: "إِنّي قد رَأَيتُ مذَلَّةَ شَعْبي الَّذي بِمِصْر، وسَمِعتُ صُراخَه بسَبَبِ مُسَخِّريه، وعَلِمتُ بآلامِه، 8 فنزَلتُ لأُنقِذَه مِن أَيدي المِصريّين وأُصعِدَه مِن هذه الأَرضِ إِلى أَرضٍ طَيِّبةٍ واسِعة، إِلى أَرضٍ تَدُر لَبَناً حَليباً وعَسَلاً، إِلى مَكانِ الكَنْعانِيّينَ والحِثِّيينَ والأَمورِيّينَ والفَرِزِّيّينَ والحُوِّيّينَ واليَبوسِيّين. 9 والآن هُوَذا صُراخُ بَني إِسْرائيلَ قدْ بَلَغَ إِلَيَّ، وقَد رَأَيتُ الظُّلْمَ الَّذي ظَلَمَهم بِه المِصرِيُّون. 10 فالآن، إِذهَبْ! أُرسِلُكَ إِلى فِرعَون. أَخرِجْ شَعْبي بَني إِسْرائيلَ مِن مِصر". 11 فقالَ موسى لله: "مَن أَنا حَتَّى أَذهَبَ إِلى فِرعَون وأُخرِجَ بَني إِسرائيلَ من مِصر؟" 12 قال: "أَنا أَكونُ معَكَ، وهذه علامةٌ لكَ على أَنِّي أَنا أَرسَلتُكَ: إِذا أَخرَجتَ الشَّعبَ مِن مِصر، تَعبُدونَ اللهَ على هذا الجَبَل".

الموضوع

من السمات الأساسيّة في الثالوث حضور الأقانيم الدائم لبعضهم بعضًا. وحين أراد الله أن يكشف لموسى عن اسمه قال له: "أنا هو"، أي أنا الكائن، الحاضر دومًا وأبدًا. وحين أراد يسوع أن يودّع تلاميذه، طمأنهم وقال: سأكون معكم حتّى انقضاء الدهر. سأكون حاضرًا في السرّاء والضرّاء. ولم يكتفِ بهذا، بل قال إنّ الأقانيم الثلاثة حاضرة أيضًا. فالروح القدس "يكون معكم دومًا". لذلك يقول القدّيس أوغسطينوس في اعترافاته، حين يصف فترة ضياعه، التي نصفها خطأً بأنّها فترة غياب الله عن حياتنا: "كان الله حاضرًا، وكنتُ أنا غائبًا".

يقيم الكتاب المقدّس علاقة وثيقة بين المنزل والعائلة، ففي اللغة العربيّة نستخدم كلمة "بيت" للدلالة إلى مبنى المنزل وإلى الأسرة التي تعيش فيه (هذا الشخص من بيت فلان). حين قال الله لداود: "سأبني لك بيتًا" (2 صم 7: 27)، كان يقصد أنّه سوف يعطيه نسلًا. فالمنزل ليس مجرّد جدران وأثاث بل بشر وهم الّذين يمنحون المكان روحًا. وهذا يتطلّب نوعيّة حضور متميّز. فنحن نستطيع أن نكون في المنزل دون أن نكون حاضرين فيه حقًّا. والفلسفة تضع تضادًّا بين: أن "أكون موجودًا" وأن "أكون حاضرًا"!

إنّ العبور من الوجود الجسدي إلى الحضور الروحي الإنساني الفعلي يتطلّب مسيرة شخصيّة تُجبرنا على الخروج من ذواتنا لننفتح على الآخر ونصغي إليه ونتعاطف معه. قد يكون الوالدان موجودان في البيت جسديًّا، لكنّهما غائبان قلبًا وروحًا. إنّها من أهمّ مشكلات الحياة العائليّة. يمكنكم أن تكونوا جالسين على أريكة مريحة ومنغمسين في متابعة برنامج تليفزيونيّ أو الموبايل، وغائبين تمامًا عن الأولاد الّذين يريدون أن يخبروكم عمّا حدث معهم في المدرسة: "بابا، بابا!" - "نعم، ماذا تريد؟" - "أتعرف ما حدث لي اليوم مع زميلي سمير؟" – بعدين بعدين يا حبيبي... ألا ترى أنّي مشغول الآن"... ويرسلونه لواجباته ودراسته، معتبرين أنّهم قاموا بواجبهم طالما وفّروا له الأكل

والشرب والسكن والسرير المريح والغرفة النظيفة... لكنّه محبط وحزين. لمَ؟ لأنّ هذا المنزل المفروش والمزيّن والمنمّق يفتقد إلى الحضور. فالحاجة الأعظم لدى الطفل هي أن يجد مَن يصغي إليه. إن لم تصغوا إلى طفلكم وهو صغير، لا تندهشوا إذا أهملكم في مراهقته حين تسعوا إلى التحدّث معه لتوعيته. لقد فات الأوان لبناء جسور التواصل معه.

هناك أهالي يقولون: "لسنا نحن غير الحاضرين بل أولادنا. إنّهم في النادي أو مع الأصدقاء أو منشغلين بأجهزة التواصل – Face Book, I Pad أو غيرها". هذه حجج. فالعائلة مسؤوليّة جماعيّة، والكلّ معنيّون بواجب الحضور: الصغار والكبار، الوالدَين والأبناء. وعلى الوالدَين أن يبتدعا أوقاتًا ليكونوا معًا.

وجبة الطعام مثلاً، علينا جعلها احتفاليّة من حين إلى آخر، لا في المناسبات والأعياد وحسب، بل في يوم الإجازة، سواء كان الجمعة أو الأحد؟ ففي هذا اليوم نفرض على الكلّ حضورًا حول مائدةٍ جميلة، مغطّاة بمفرش لائق، مع أطباق مميّزة وأكواب جميلة، وباقة ورد في المنتصف... كلّ هذا يشكّل جزءًا من "الطقوس" التي أكّد على أهمّيّتها "الثعلب" في رواية "**الأمير الصغير**"، فكان يقول: "لابدّ من الطقوس"، نعم، الطقوس مهمّة، وهذا ما فهمته الكنيسة واهتمّت به برعايتها لليترجية وللاحتفال في بعض الأعياد الخاصّة.

ربّما يجب أن نقول بعض الكلمات عن الوسائل التقنيّة الحديثة كالكمبيوتر والموبايل... هذه وسائل تُحسّن التواصل مع البعيدين، لكنّها قد تحطّم العلاقة بالقريبين. فنكون معًا جنبًا إلى جنب حول المائدة، أو في الصالون، أو في المطعم، وكلّ واحد بعيد سنوات ضوئيّة عن الآخر. **هذه الأدوات قد تدمّر العائلة إن لم توضع بعض القواعد لاستعمالها**. علينا أن نتعلّم تخصيص وقت مجّانيّ صرف نكون فيه حاضرين لبعضنا بعضًا. فحياة العائلة أهمّ بكثير من أخبار الفيسبوك، أو آخر رسالة في الواتسآب!

أسئلة لواجب المجالسة

ما هو تقييمكم للحضور لبعضكم بعضًا في البيت، وهل من وسائل لتحسينه؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

إلى أيّ مدى أشعر بأنّي حرّ أو عبد لوسائل التواصل؟

يقول البابا فرنسيس: في القدّاس، يقول الكاهن لنرفع قلوبنا إلى العلى، لا لنرفع موبايلاتنا إلى العلى. فالربّ حاضر، ولا يليق أن نتلهّى عنه بما هو أدنى منه. ما تعليقكم على هذا؟

اللقاء السابع

الحبّ تخلّي وانسلاخ

للصلاة

57 وبَينَما هُم سائرون، قالَ لَه رَجُلٌ في الطَّريق: "أَتبَعُكَ حيثُ تَمْضي". 58 فقالَ لَه يسوع : "إِنَّ لِلثَّعالِبِ أَوجِرَة ولِطُيورِ السَّماءِ أَوكاراً، وأَمَّا ابنُ الإِنسانِ فلَيسَ لَه ما يَضَعُ علَيهِ رَأسَه". 59 وقالَ لآخَر: "اِتْبَعْني!" فقال: "إِيْذَنْ لي أَن أَمضِيَ أَوَّلاً فَأَدفِنَ أَبي". 60فقالَ لَه: "دَعِ المَوتى يَدفِنونَ مَوتاهم. وأَمَّا أَنتَ فَامضِ وبَشِّرْ بمَلَكوتِ الله". 61وقالَ لَه آخَر: "أَتبَعُكَ يا ربّ، ولكِنِ ائذَنْ لي أَوَّلاً أَن أُوَدِّعَ أَهلَ بَيتي". 62فقالَ لَه يسوع: "ما مِن أَحَدٍ يَضَعُ يَدَه على المِحراث، ثُمَّ يَلتَفِتُ إِلى الوَراء، يَصلُحُ لِمَلَكوتِ الله".

الموضوع

سوف يبدو هذا الموضوع يعاكس تمامًا ما رأيناه في المواضيع السابقة. لكنّه يندرج في سياق حياة الثالوث. يقول لنا يوحنّا الإنجيليّ: "إنّ الله أحبّ العالم، حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد كي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة" (يو 3: 16).

الحبّ يضحّي. نحن نعرف هذا تمامًا. ولكن بين أن نعرفه ونعيشه فارق واسع. لذلك نعود إلى الثالوث لننال منه قوّة من أجل تضحيةٍ لا بدّ منها. فأطفالنا ليسوا ملكيّة لنا. إنّهم أبناء الله، ولهم دعوتهم التي يجب أن نحترمها. أطفالنا الصغار هم معنا وتحت كنفنا. وحين يكبرون، لا نلاحظ ذلك، ويبدأوا بمحاولة الطيران وحدهم، ونبدأ بمنعهم، فتنشب الصراعات. هذا هو حال كلّ عائلةٍ. إنّه قدَرٌ لا مفرّ منه.

ما بين التأصّل والانسلاخ

بقدر ما الاستقرار في مكان ما ركيزة أساسيّة لاكتساب التوازن النفسيّ والهويّة، تبدو القدرة على تركه ضرورة للنموّ وتوسيع القلب والآفاق. فالطفل الذي في رحم أمّه ويشعر بالأمان والدفء، لن يولد ما لم يقبل ترك هذا العُشّ المريح ليبدأ في مواجهة العالم.

وما إن يجتاز الطفل عتبة الولادة، يتوجب عليه اجتياز العتبة الثانية، ألا وهي مرحلة الفطام، ثمّ عليه أن يواجه المرحلة الثالثة، وهي دخول المدرسة، مع ما تتطلّبه من ترك المكان الذي كان فيه ملك مُدلّل. فيرى نفسه فجأة في وسطٍ غريبٍ ومختلف، وهو فيه طفل بين كثيرين، ويتساءل: أين والدتي؟ أين والدي؟ أين إخوتي وأخواتي؟ وبعد فترة المدرسة والجامعة، يتوجّب على الشابّ خوض مجال العمل. ثمّ مغامرة الزواج، أو فكرة الهجرة أو التكريس... كلّ هذه العتبات تجبر الشابّ على النموّ والانفتاح وتوسيع الأفاق.

إنّ حياة الإنسان تنمو من خلال سلسلةٍ من الانتزاعات... في حين أنّه يَميل تلقائيًّا إلى التوقّف والاستقرار والركود... بما في ذلك من خطر التحجّر والضمور. فبقدر ما ألححنا في مواضيعنا السابقة على أهمّيّة الاستقرار، نلحّ هنا على خطورته. فالتأصّل مرحلة لا غنى عنها لاكتساب الهويّة. ولكن في مرحلة تالية يجب التخلّي والانفتاح والانطلاق كي لا نصير عبيدًا لماضينا وعاداتنا. علينا أن نتعلّم كيف نترك ونرحل وننسلخ.

يبدأ تاريخ الخلاص في الكتاب المقدّس برحيل واقتلاع: "أترك بلدك، وعائلتك وبيت أبيك، واذهب إلى البلد التي أريك" (تك12: 1). إنّها دعوة إلى التجوّل وحياة الترحال. فعندما وصل إبراهيم إلى فلسطين، ظنّ أنّه بلغ أخيرًا مرحلة الاستقرار. ولكنّ هذا لم يحدث، فالاستقرار لم يدم طويلًا، وهاجر نسله إلى مصر، وظلّ فيها غريبًا وفي حالة عبوديّة لمدّة أربعة قرون. ثمّ جاء موسى ليقتلعه ويعيده إلى أرض الميعاد. ثمّ حدث أن عبد الشعب آلهة غريبة، فسمح الله بالسبي إلى بابل. وبعد عشرات السنين عاد الشعب مرّة أخرى إلى إسرائيل، حتّى طُرِدَ منها نهائيًّا في العام 135 ميلاديّة. فإذا كانت الأرض ترمز إلى التأصّل والتجذّر والأمان، يعبّر الرحيل عن الاقتلاع والانسلاخ والنفي.

إنّ عيد الميلاد هو عيد طفلٍ لم يولد في منزله، ولا حتّى في منزلٍ آخر، ولا في فندق، فكلّها مكتظّة. بل ولد في إحدى المغاور التي تأوي إليها الحيوانات. نعم، لم يشأ المسيح أن يعرف البيت حين وِلِدَ. فمنذ لحظة الحبل به، كانت أولى الحركات التي أوحى بها إلى أمّه هي ترك البيت: "فخرجت مريم مسرعةً من المنزل" (لو1: 39! وإذ أراد يسوع أن يولد، انتظر حتى يكون يوسف ومريم في سفر، وبمفردهما، وفي الطريق، وفي المساء. وبعد عدّة أيّام عصيبة، هل سيعودوا إلى الناصرة ليستقرّا في منزلهم؟ لا، فقد كان كلام الملاك واضحًا: "قم خذ الصبيّ وأمّه واهرب إلى مصر..." (متى2: 13). وسيعيش يسوع سنواتٍ من طفولته في المهجر...، ثمّ سيختبر نوعًا من الاستقرار في الناصرة، حيث سيعيش ثلاثين سنة حياةً أسريّة حقيقيّة مع مريم ويوسف النجار، حياة الدفء التي تحدّثنا عنها في المواضيع السابقة... "لقد سكن بيننا" (يو1: 14).

وفي سنّ الثلاثين، بدأ ترحالًا آخر وترك بيته نهائيًّا ليذهب إلى الأردن، ثم إلى الصحراء، فمدن وقرى فلسطين وسوريا وفينيقيّة... وكان طوال ثلاث سنوات جوّالاً على الطرقات، "فلم يكن له حجر يسند عليه رأسه" (لو9: 58). لا شكّ في أنّه اختبر من حين لآخر دفء منزل بعض الأصدقاء مثل بطرس ولعازر، ولكنّه كان مجرّد مرور عابر. ثمّ حانت "الساعة". فعاش ليلته الأخيرة المأساويّة في بستان الزيتون – بعد الليالي الكثيرة التي قضاها في العراء - قبل أن يموت وحيدًا على صخرة تعصف بها الرياح...

وأمّا بيته في الناصرة، مكان طفولته، لا شكّ في أنّه بيع لغرباء منذ أن تركه. فمن الآن وصاعدًا لن يكون له منزل على الأرض. هذه هي قصّة ابن الإنسان: وِلِدَ في الخلاء ومات في الخلاء. فهل أراد بذلك أن يدين البيت؟

إنّ هذا التأرجح بين التأصّل والانسلاخ هو شرط للنموّ ولتوسيع القلب وانفتاحه على العالم. وهنا يكتشف الإنسان أنّه ما من منزل هو منزله، ولا من بلد هو بلده، ولا من وطن هو وطنه، ولا من مكانٍ هو بيته... وفي كلّ مكانٍ يشعر بأنّه في بيته. وهذا ما قاله كاتب **"الرسالة إلى ديوجينيت"** في القرن الأوّل عن المسيحيّين: "... لا يسكن المسيحيّون مدنًا خاصّة بهم، [...] كلّ منهم يقيم في وطنه، ولكن كعابر سبيل. [...] أيّ بقعة غريبة هي وطن لهم، وأيّ بقعة في الدنيا غريبة لهم. [...]

يقضون حياتهم على الأرض ولكنّهم مواطنو السماء.[...] الروح الخالدة تقيم في خيمةٍ فانية. كذلك يخيّم المسيحيّون في الفاني بانتظار الخلد السماويّ". (الرسالة إلى ديوجيت 5: 1-6: 8). فمنزلنا هو الأرض كلّها، وبلدنا هو العالم بأسره، وعائلتنا هي البشريّة جمعاء.

ختامًا، من انسلاخٍ إلى انسلاخ، يؤول بي الأمر إلى أن أجد ذاتي في بيتي في أيّ مكان. كلّنا مدعوّون إلى هذه الخبرة، وعلينا أن ننقلها إلى أولادنا. على الكنائس أن تنظّم للأولاد رحلاتٍ مرهقة لأجل هذا الهدف المحدّد، أي إخراج هؤلاء الصغار المدلّلين من بيئتهم المريحة، لمساعدتهم على قطع الحبل السريّ الذي لايزال يربطهم بآبائهم وأمّهاتهم. يجب إطلاقهم ليكتشفوا أماكن مجهولة. فالمغامرة هي طريق للنمو.

وأخيرًا، يمكننا القول إنّ هذا التأرجح بين التأصّل والانسلاخ هو أسلوب حياة ومسيرة روحيّة. لقد خرجنا من الله وإلى الله نعود؛ تمامًا كما خرج الابن من عالم الثالوث اللازمنيّ ليدخل عالمنا الزمنيّ، ويعود إليه وقد اصطحبنا معه. فمَن قبِلَ الانسلاخ، نال النصيب الأفضل. ومَن لم يقبله، واستكان لاستقراره، دبّ التكلّس في أوصاله، والعفونة في حياته.

علينا أن نكون قادرين على حمل منزلنا معنا أينما ذهبنا. بهذه الطريقة نحوّل الشكل الخارجيّ للمباني إلى بنية داخليّة يمكنها أن تغنينا عن كلّ أنواع المنازل الحجاريّة.

هذه البنية هي هويّتنا الداخليّة العميقة. عندما لا تعتمد هويتنا على أيّ بيئة خارجيّة مهما كانت، فهذا يعني أنّنا وصلنا إلى ذروة الحرّيّة. كذلك الإيمان والحقيقة والحبّ تتخطّى دائمًا ذاتيّتها. وهنا، نؤكّد على أنّ الحياة الروحيّة تكمن في عدم الاستقرار، وعدم الاعتقاد بأنّنا في يوم من الأيّام وصلنا. نحن حُجّاج ومسافرون، دائمًا على "الطريق"، وربّما هذه هي رسالة الإنجيل الأساسيّة!

أسئلة لواجب المجالسة

إلى أيّ مدى أقبل إيجابيًّا، لا راضخًا، انسلاخ الأولاد عنّي؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع

أشارك مع الأخويّة خبرة الصراع مع الأولاد بين التبعيّة لنا والسعي إلى الاستقلاليّة. هل تتضمّن تربيتي لأولادي "خطّة انسحابٍ تدريجيّ"؟ كيف؟

لقاء في زمن الميلاد

التجسّد ذروة الحب

للصلاة

في البَدءِ كانَ الكَلِمَة والكَلِمَةُ كانَ لَدى الله والكَلِمَةُ هوَ الله. 2كانَ في البَدءِ لَدى الله. 3بِه كانَ كُلُّ شَيء وبِدونِه ما كانَ شَيءٌ مِمَّا كان. 4فيهِ كانَتِ الحَياة والحَياةُ نورُ النَّاس 5والنُّورُ يَشرِقُ في الظُّلُمات ولَم تُدرِكْه الظُّلُمات. [...] 11جاءَ إِلى بَيتِه. فما قَبِلَه أَهْلُ بَيتِه. 12أَمَّا الَّذينَ قَبِلوه وهُمُ الَّذينَ يُؤمِنونَ بِاسمِه فقَد مَكَّنَهم أَنْ يَصيروا أَبْناءَ الله: 13فهُمُ الَّذينَ لا مِن دَمٍ ولا مِن رَغبَةِ لَحْمٍ ولا مِن رَغبَةِ رَجُل بل مِنَ اللهِ وُلِدوا. 14والكَلِمَةُ صارَ بَشَراً فسَكَنَ بَينَنا فرأَينا مَجدَه مَجداً مِن لَدُنِ الآبِ لابنٍ وَحيد مِلؤُه النِّعمَةُ والحَقّ (يو 1: 1-2، 11-14).

الموضوع

لا شكّ في أنّ التجسّد والفداء يرتبطان انطلاقًا ممّا حدث تاريخيًّا. لكنّ الكنيسة وجدت في كلٍّ منهما قيمة مستقلّة، فاعتبرتهما سرَّين لا سرًّا واحدًا، في حين لم تُعتبَر أحداث أخرى كالتجلّي والصعود والعنصرة أسرارًا بل أحداثًا لها قيمتها ومعانيها. كيف نفهم هذا؟ سوف نعرض بعدَين للتجسّد ينخرطان في مواضيعنا في هذا الكرّاس، ويساعدانا على عيش هذا الزمن بمشاعر أخرى.

التجسّد هو اكتمال الحب

فلنتخيّل شخصَين يحبّان بعضهما بعضًا، الواحد يسكن في بلدٍ فقير ولا يستطيع مغادرته لأسبابٍ عدّة (ديون، حظر سفر، إلخ) والآخر حرّ يعيش في بلدٍ غنيّ ويستطيع التنقّل. ما هي الخطوة التي يجب عملها ليصل الحبّ إلى ذروته أي اللقاء؟ فالحبّ لا يكتمل إلاّ باللقاء. ويصعب علينا تصديق أنّ اثنَين يحبّان بعضهما بعضًا بشدّة، ولا يلتقيان. لذلك قيل: «البعد جفاء». إذًا، ومن أجل وصول الحبّ إلى ذروته، سيقوم الطرف الآخر القادر على السفر، ويأتي إلى المحبوب العاجز عن السفر، يحلّ مشكلاته ويأخذه إلى البلد الأفضل. هذا ما حدث في التجسّد.

فالحركة الثالوثيّة التي ذكرناها في الموضوع الأوّل، كلّ أقنومٍ يتوجّه باستمرارٍ إلى الآخر، هي نفسها بين الخليقة والخالق: خرجنا من الله وإلى الله نعود. هذا ما يقوله القدّيس أغسطينوس في اعترافاته: «خلقتنا لك يا ربّ، وقلبنا لن يرتاح إلاّ فيك». وبسبب الخطيئة تعطّلت هذه الحركة. الله يتابع جذبه للإنسان «بحبال المحبّة والرأفة» (هوشع) ولكنّ الإنسان مقيّد ولا يستطيع الذهاب للقاء الله. وإذ لا يستطيع الإنسان أن يأتي إلى الله ليكتمل سرّ الحب، أتى الله بنفسه. وإذ رآنا عاجزين عن المضيّ معه بسبب قيود الخطيئة، حرّرنا ودعانا لنتبعه إلى حيث يقيم.

لذلك يقول قانون الإيمان: «لأجلنا ولأجل خلاصنا، نزل من السماء». في هذه العبارة واو عطفٍ جوهريّة كما يقول الكاردينال والتر كاسبر. لأجلنا، **أي لأجل اكتمال سرّ الحبّ بين الله والإنسان**. وحيث إنّ الإنسان كان مقيّدًا، تضمّن مشروع التجسّد كسر القيود (لأجل خلاصنا). فاللاهوت الشرقيّ يلحّ على ناحية (لأجلنا) حين يتكلّم على التألّه «صار الله إنسانًا ليصير الإنسان

إلهًا» (أثناسيوس الإسكندريّ). اللاهوت الغربيّ يلحّ أكثر على ناحية الخلاص، ويقول: «تجسّد المسيح ليخلّصنا»، مقولة صارت في الأقوال الشائعة: «تجسّد يسوع ليُصلَب». وانتبه الفاتيكاني الثاني إلى هذا فقال: «كلمةُ الله، الإنسان الكامل، الذي به كل شيء كُوِّن، صار جسدًا لكي يخلّص كلّ الناس ويجمع كلّ شيء» (الكنيسة في عالم اليوم، 45). نلاحظ أنّ المجمع يعترف بالفارق بين: لأجلنا، ولأجل خلاصنا، لكنّه يجعل لأجل خلاصنا أوّلاً. ما رأيكم، هل ترتاحون إلى هذا الترتيب أم إلى ترتيبٍ قانون الإيمان؟

التألّه

التألّه هو تعبير آبائيّ اختصره القدّيس أثناسيوس بعبارة: «صار الله إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا». ينطلق مبدأ التألّه من مبدأ أنتروبولوجيّ: كلّ إنسانٍ يشعر بداخله بتوقٍ إلى المطلق لا يعرف سرّه، ولا من أين أتاه، ولا كيف يحقّقه. **كلّ إنسانٍ يشعر بأنّ الحياة التي يعيشها أضيق وأدنى من الحياة التي يستحقّها**. كلّ إنسانٍ يتوق إلى الخلود فيحاول بشتّى الوسائل أن يدوم ذكره على الأرض. هذا التوق إلى المطلق، والشموليّة، والخلود يأتي ممّا نسمّيه: «صورة الله فينا». فما يتوق إليه هو صفات إلهيّة موجودة عند الله وحده. ولكن هيهات أن يتمكّن من تحقيقها بذاته! فنحن نصطدم دومًا بجدار المحدوديّة: محدوديّة قدراتنا، محدوديّتنا داخل المساحة والزمن، ومحدوديّة سنوات حياتنا. الرغبة موجودة، ولكنّ تحقيقها مستحيل.

من أين أتى جدار المحدوديّة هذا ؟ يقول الإيمان إنّه أتى من الخطيئة. فقد خلق الله الإنسان قادرًا على التواصل معه والبقاء بقربه، خلقه حرًّا يتمتّع بإرادةٍ حرة. وبهذه الإرادة يستطيع الإنسان أن يختار موقعه في أن يكون مع الله أو خارجًا عنه. لكنّ الإنسان اختار أن يبتعد عن الله، وبهذا الابتعاد فقد «بوصلة التوجّه» إلى الله، وغاص في ثقافاتٍ مشبعة بالأنانيّة والكبرياء. باختصار، تاه، وانقطع عن النبع الذي يمنحه النعمة كي يتشبّه يوميًّا بالله.

بالتجسّد أعطانا الله نموذجًا لما يجب على الإنسان أن يكونه بحسب الطبيعة التي خُلِقَ بموجبها. فالمسيح هو المثال، الكتالوغ، الذي يجب أن نقتدي به وبحياته الجماعيّة في الثالوث. وأكثر من ذلك، بالمسيح ننال النعمة لكي نقتدي به، لأنّنا لا نستطيع الاقتداء بالاعتماد على قوانا الشخصيّة. فالتألّه لا يعني ذوبان الطبيعة الإنسانيّة واختفاءها، بل يعني تحقيق هذه الإنسانيّة وبلوغها إلى هدفها الذي من أجله خلقها الله. يقول القديس يوحنّا الدمشقي: «بالنعمة يصير الإنسان ما هو المسيح بالطبيعة».

التألّه هو ترميم للطبيعة الإنسانيّة التي سقطت بمشيئتها الحرّة. لذلك، كما يقول مِثوديوس الأُولمبي: «لم يأتِ المسيح ليغيّر الطبيعة الإنسانيّة أو ليحوّلها، بل أتى ليُعيد هذه الطبيعة إلى حالتها قبل السقوط، أي إلى عدم الموت» (الخلود).

لنفهم التألّه نضرب عليه مثلاً: سقط شخص في نهرٍ جارف، وصار يتخبّط بين الأمواج، ويتمسّك بصخورٍ أو شجيرات في وسط النهر كي لا يهلك. لكنّه ظلّ عالقًا. عبثًا تقول له من بعيد افعل كذا، وافعل كذا، فهو يفتقر إلى الخبرة والقوّة. وفجأةً، نزل شخص قويّ إلى النهر، وطلب من الشخص الغارق أن يتمسّك به، وقاوم الموج معه، وأعاده إلى المكان الذي سقط منه. هذه هي القصّة ببساطة.

أسئلة لواجب المجالسة

بعد قراءة الموضوع، يدوّن كلّ واحدٍ صلاة من وحي معاني التجسّد، ويقرأها لشريكه في واجب المجالسة؟

أسئلة للمشاركة في الاجتماع أشارك مع الأخويّة بما لفت انتباهي في أفكار الموضوع، وما لم أفهمه، وتساؤلاتي.